مبررات العقاب الإلهي في العراق القديم

أ.م.د. سعد عبود سمار طالب الماجستير علي فاضل نهير

جامعة واسط / كلية التربية / قسم التاريخ

المقدمة

يحظى العقاب بأهمية في الفكر الديني العراقي القديم ، إذ اعتقد العراقيون القدماء بوجود عدد من الخطايا تغضب الآلهة وتدعوها إلى معاقبة مرتكبيها سواءً اكانوا آلهة أم بشرا، وكان لكل منها عقابها الذي يتناسب وحجمها ، فحينما ترتكب الخطيئة بقصد يكون العقاب الناتج عنها أشد من تلك التي ترتكب بغير قصد. والتي تُرتكب بحُسن نية تعفى من العقاب. وحيانا يكون العقاب جائر بحيث لا يتناسب وحجم الخطيئة المقترفة كما في الطوفان وتدمير المُدن. واعتقدوا بوجود الخطيئة الموروثة التي يرثها الأبناء من وزر خطايا الآباء، فالميت في معتقدات سكان بلاد الرافدين لا يتحمل وزر خطاياه إلى العالم الأسفل، وإنما تبقى ليتحملها ورثته وأفراد عائلته الأحياء.

وتأسيسا على ما تقدم تم اختيار موضوع بحثنا الموسوم (مبررات العقاب الإلهي في العراق القديم) .

مفهوم العقاب الإلهي

العِقاب هو القِصاص الذي تأمر بهِ الآلهة عن كُل عمل مخالف لإرادتهم السامية، ويمكن أن نُقرنه بالعِقاب الذي تُنزله السلطة الأرضية عن كُل عمل مخالف للقانون[١]. وقد وردت تسميات عدة في النصوص المسمارية تُشير إلى العِقاب في اللغتين السومرية والأكدية، ففي اللغة السومرية جاءت الصيغة (ZAG) لتُعبر عن العِقاب والعقوبة، ومرادفتها في اللغة الأكدية (imittu) و(emittu)[٢]،

([1]) بوتيرو، بلاد الرافدين، ص٢٧٩.

([2]) CAD, Vol. 7, P. 126;

؛ عامر سليمان، وآخرون، المعجم المسماري (معجم اللغة الأكدية "البابلية والأشورية" باللغة العربية والحرف العربي)، منشورات المجمع العلمي، (بغداد: ١٩٩٩)، ج١، ص١٣٦.

وترد أحياناً مدونة بالعلامة السومرية (ŠE.BI.DA) ومرادفتها المفردة الأكدية (ḫīṭu)[١]، كما نجد الكلمة (NAM.TAG.GA) السومرية التي تقابلها (arnu) و(annu) الأكدية تُعبر عن العِقاب أيضاً، وكذلك الذنب والإثم والإعتداء والإهانة[٢]. ووردت في المعاجم اللغوية مفردة العقوبة المقدسة بالصيغة الأكدية (ennettu) و(ennittu)[٣].

مبررات العقاب الإلهي

استوحى العراقي القديم واقع سلطة الدولة التي يعيش في ظلها لينقل صورتها إلى المجتمع الإلهي، فالكون بحسب اعتقاده يشبه الدولة، ومثلما كانت الدولة تُعاقب المخالفين، كان على الآلهة أو (الحكومة الإلهية) إذا صح القول أن يُعاقبوا أيضاً، لكنهم في الواقع لا يعاقبون دوماً، لا لأنهم لا يطلعون على الإثم[٤]، شأن السلطات الأرضية، ولكن لأسباب كثيرة سرية كانوا هُم وحدهُم يحكمون

---

(1) CAD, Vol. 6. P. 210;
؛ عامر سليمان، وآخرون، المعجم المسماري، ج١، ص٢٠١؛ هناك ترادف لفظي بين العِقاب والذنب والخطيئة ومُعاقبة الخاطئ، إذ استعمل البابليون الكلمة (ḫīṭu) للتعبير عن تلك المفاهيم، والأمر نفسه عند العبرانيين فالكلمة (acham) تعني عندهم العِقاب والذنب على حد سواء، ينظر: جورج بوييه شمار، المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة: سليم الصويص، شركة المطابع النموذجية، (بغداد: ١٩٨١)، ص٥٩.

(2) CAD, Vol. 1, P.294;
؛ عامر سليمان، وآخرون، المعجم المسماري، ج١، ص٦٢؛ ويذكر « ف. فون زودن » إن الكلمتين الأكديتين (arnu) و(annu) تُعبران عن العقوبة الناتجة عن الإثم، ينظر: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، (بيروت: ٢٠٠٣)، ص٢٠٤.

(3) CAD, Vol. 4, PP. 169-170; AHW, I-a, P. 219;
؛ عامر سليمان، وآخرون، المعجم المسماري، ج١، ص١٣٨.

(4) ذُكر الإثم في اللغة الأكدية بصيغة (ḫiṭītu)، ومُرتكب الإثم بصيغة (gillatu). ويُعدّ الإثم تحدٍ للإرادات العليا للآلهة وتمردٌ عليها، وارتكاب خطيئة بحقها، ينظر: جان بوتيرو، بابل والكتاب المقدس (محاورات مع أيلين مونساكريه)، ترجمة: روز مخلوف، ط١، دار كنعان، (بيروت: د.ت)، ص١٨٦؛ عامر سليمان، وآخرون، المعجم المسماري، ج١، ص٤٧؛ وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه ذلك الذي يأكل ما حرمه إلهه أو إلهته، وهو من يقول لا بدلاً من أن يقول نعم، أو يقول نعم بدلاً من أن يقول لا، وهو من يشير بأصبعه إلى مُواطن باتهام باطل، وهو الذي يقول مالا يجوز، وهو الذي يحتقر آلهته أو يسخر منها، وهو الذي ينطق بالباطل ولا ينطق بالحق، وهو الذي يظلم الضعيف، ويباعد بين الابن وأبيه، وبين الصديق وصديقه، ولا يعتق الأسير. { كامل سعفان، معتقدات أسيوية (العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان)، ط١، دار الندى، (بيروت: ١٩٩٩)، ص٥٨ }.

فيها، بحريتهم السامية وبتصميم عميق لا يُدرك، فحين يقف العراقي أمام محنة طارئة أو نكبة مفاجئة أو مرض مباغت أو موت قسري أو كارثة غير متوقعة، يُفكر حالاً في الآلهة وكأنهم سبب هذه الشرور[١].

وهناك مبدأ مهم في الديانة العراقية القديمة قائم على أن كُل ما يغيظ الإله خطيئة . إذ نقرأ في صلاة مرفوعة إلى الإله "نينيف ninive" بما يوضح العلاقة بين الخطيئة وغضب الآلهة بشكل جلي:

"من يخطأ تحله من خطيئته

ومن أثار سخط الآلهة فإنك تطفي غضب إلهه"[٢].

لذا فالتوازي بين الشطرين، اقتراف الخطيئة وإثارة غضب الآلهة، هما تعبيران مترابطان ، فقد رأى العراقيون القدماء في الخطيئة الأثر السيئ نفسه، وما يؤكد ذلك استعمال الأكديين لكلمة واحدة في التعبير عن مفهوم العِقاب والخطيئة ومُعاقبة الخاطئ هي : (arnu)، أو (ḫīṭu)[٣].

واعتقد سكان بلاد الرافدين القدماء أن الخطيئة قديمة وجدت مع وجود الإنسان، وأنه مُعرض دائماً لارتكابها، كما ورد في أحد النصوص السومرية:

"لقد قال الحكماء كلمة صادقة ومعبرة:

لم يولد لأم ولد بلا خطيئة

ومنذ القدم لم يكن فتى بلا خطيئة"[٤].

([1]) ثوركيلد جاكوبسن، ارض الرافدين (ما قبل الفلسفة) "الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى"، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت: ١٩٨٠)، ص١٥٠؛ جان بوتيرو، بلاد الرافدين (الكتابة، العقل، الآلهة)، ترجمة: الأب ألبير أبونا، مراجعة: وليد الجاد، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٠)، ص٢٧٨؛ عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الخلود للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٨١)، ص ص٣٦٤-٣٦٥.

([2]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص٢٩٦.

([3]) المصدر نفسه، ص٥٩؛ الطعان، الفكر السياسي، ص٥٢٥.

([4]) صموئيل نوح كريمر، الديانة السومرية "اللاهوت والطقس والأسطورة" (موسوعة تاريخ الأديان)، ترجمة: نهاد خياطة، تحرير: فراس السواح، دار علاء الدين، (دمشق:٢٠٠٤)، ج٢، ص٢٠٢.

والإنسان بحسب هذا النص منذ أن ولد ولدت معه الخطيئة، أي أن الخطيئة ملازمة لـهُ منـذ أن خلقته الآلهة. فالخطيئة تعني عصيان الأوامر الصادرة عن الآلهة ومخالفة التعاليم الطقـسية وانتهـاك المحرم (التابو)[١] بقصد كان أم بغير قصد[٢]. ويُذكر أن أكبر خطيئة تمقتها الآلهة هي خطيئة معـصية الوصايا والتعاليم[٣].

الخطايا المقترفة والعقوبات الناتجة عنها

الخطيئة بحسب معتقدات سكان بلاد الرافدين كانت على نـوعين: (دينيـة)، تخـص المراسـيم والشعائر الدينية. و(مدنية)، تدخل ضمن النطاق السياسي والأخلاقي، وتُعدّ الأخيرة أكثر خطورة مـن الأولى[٤]. ويُطلق على الخطيئة الدينية في السومرية المصطلح (NIG.GIG) ويرادفـه فـي الأكديـة (ikkibu)، أما الخطيئة السياسية أو الأخلاقية فقد أطلق عليها السومريون المصطلح (NAM.TAG)، ويرادف هذا المصطلح بالأكدية (annu) و(arnu) ويُمكن ترجمتها بمعنى الإساءة ، وتعنـي العقوبـة والقِصاص أيضاً[٥].

وهناك فرق كبير بين الخطيئة القصدية والخطيئة غير المقصودة[٦]، ومن الصعب التمييـز بـين الخطيئة المقصودة المُدركة عن الخطيئة العارضة غير المقصودة، وأن الخـط الفاصـل بـين هـاتين الخطيئتين ليس واضحاً في كثير من الحالات، والنتيجة التي تترتب على هاتين الخطيئتين ليس واضحاً هو الآخر، ولكن يُمكن القول : إن الخطيئة التي يقترفها الإنسان عن وعي ضد آلهته أشدُ عِقابـاً مـن الخطيئة التي يرتكبها الإنسان من غير قصد، وهذه الاعتبارات تفسر أن انتهاك المقـدس عـن إدراك

([1]) عرف دورخايم " التابو Tabou " بأنه: مجموعة التحريمات الطقسية التي تهدف إلى تجنب النتائج الخطيرة للعدوى السحرية، وذلك بمنع أي إتصال بين شيء أو صنف من الأشياء مع غيرها التي ليس لها الخاصية ذاتها؛ لذا فإن التـابو ديني في جوهره ويقدم للناس ككابح وضابط، ينظر: شمار، المسؤولية الجزائية، ص١٢٤-١٢٥.

([2]) المصدر نفسه، ص٣١٩.

([3]) المصدر نفسه، ص١٥٥.

([4]) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافـدين القديمـة، ط٢، دار الـشؤون الثقافيـة العامـة، (بغداد:١٩٨٦)، ص١٤٥؛ ولاء مهدي محمد حسين، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين وأثره في العهـد القـديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ١٩٩٩)، ص ص١١٧-١١٨.

([5]) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، ص ص١٤٥-١٤٦.

([6]) ولاء مهدي، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين، ص١١٨.

وإرادة لا يُمكن غفرانه؛ ويؤدي إلى إقصاء الخاطئ نفسه، أما الانتهاك غير الواعي أو عن سهو لما هو مقدس فهو قابل للغفران، ومثل هذا الأمر ينطبق على الآلهة أيضاً[١].

أما عن تحديد الإثم (أي الخطيئة) فغالباً ما يتم على وفق معايير محددة موضوعة، وظلت تقتصر زمناً طويلاً على وجوب إتباع السلوك الصحيح تجاه الآلهة والتمسك بالمُثل الخُلقية البشرية. وكانت تلك المثل بلا شك قديمة، التزم بها السومريون، ويبدو أنها صارت في حوالي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد دقيقة ومفصلة أكثر؛ كما يظهر من سلسلة التعاويذ المعروفة باسم "Šurpu" (الحرق) الموجهة ضد الحرمان الإلهي (في الاكدية "Mámītu")، ويرد في اللوحين الثاني والثالث منها عرض لمئتي حالة تُعدّ من حالات الإثم (الخطايا)، منها: أن يتحدث المرء بخلاف ما يعتقد، أو أن يثير الفتنة والشر ضمن الأسرة، أو أن لا يهتم بإنسان عارٍ، أو أن يضرب الحيوانات بلا مبرر، ... إلخ من الخطايا الأخرى[٢].

إن ارتكاب أي من تلك الخطايا والذنوب مدعاة لغضب الآلهة وعِقابها، ففي مجال الخطيئة القصدية نجد الأدب العراقي القديم زاخراً بمثل هكذا نوع من الخطايا، وتُعدّ أسطورة (نزول إنانا/عشتار إلى العالم الأسفل)[٣] خير شاهد على ذلك. فهذه (إنانا/عشتار) تعقد العزم على رحلة إلى العالم الأسفل على الرغم من معرفتها قوانين ذلك العالم والنتائج المترتبة عليه من الرحلة مسبقاً، إذ أمرت وزيرها (ننشوبر/ ببسوكال)[٤] بمناشدة كل من (إنليل، وننا/سين، وإنكي / إيا) عند غيابها في

([1]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص١٥١.

([2]) فون زودن، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ص٢٠٤.

([3]) وصلتنا نسختان من أسطورة (نزول إنانا/عشتار إلى العالم الأسفل): الأولى، وهي الأقدم مدونة باللغة السومرية ويعود زمن كتابتها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. أما النسخة الثانية، فمدونة باللغة الآشورية وتعود إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد مما يجعلها ضمن نطاق البحث، ينظر: فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، دار الحرية، (بغداد: ١٩٧٣)، ص ص١٠٨- ١٠٩.

([4]) "ننشوبر Ninshubur": إله سومري، وزير ومرافق الإلهة (إنانا)، يرد في إحدى قصائد العصر البابلي القديم بوصفه إلهة وزوجة للإله (نركال) بصيغة مؤنثة، وانه سفير وكبير وزراء الإله (آنو)، ويقابل أسمه في اللغة الأكدية (البرت)، ينظر: ادزارد، وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) والحضارة السورية (الاوغارتية والفينيقية)، ترجمة: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي، (بيروت: د.ت)، ص١٧٢؛ ويرد في الرواية

القدوم لمساعدتها، فإذا ما عزف الأول عن تقديم المساعدة ناشد الثاني ، وإذا أحجم الثاني ناشد الثالث[1]، ويتبادر إلى الذهن السؤال عن السبب في طلبها لثلاثة آلهة . لأنه من الراجح أن الإلهة (إنانا / عشتار) كانت على يقين أن ما أقدمت عليه يُعدّ أمراً محرماً وغير مشروع، الأمر الذي يفسر عزوف كل من (إنليل) و (ننا / سين) عن مُساعدتها[2]، مما دفع (إنانا / عشتار) أن تجعلهُم ثلاثة خشية وقوع مثل هكذا أمر، وهو ما يؤكد معرفة (إنانا / عشتار) عِقاب من ينتهك قوانين العالم الأسفل، وموت (إنانا) هو جزاء لخطيئتها المقصودة.

ونجد الخطيئة المقصودة في أسطورة (نركال وإيرشكيجال)[3] أيضا ، فمُعاقبة الإله (نركال) جاءت لعدم التزامه بالتقاليد المتعارف عليها بين الآلهة، فحينما وصل ممثل مملكة العالم الأسفل إلى العلا استقبلته الآلهة بحفاوة بالغة ووقفوا له إكراماً، أو (انحنوا له بحسب نص آخر) إلّا أن (نركال)

الآشورية للأسطورة ذاتها باسم "ببسوكال Papsukkal " الذي يعني (سفير أو حارس البوابة)، ينظر: نائل حنون، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، ط١، الشروق للخدمات المطبعية، (الأردن: ٢٠٠٢)، ص١٤٩؛
; Giovanni Pettinato, Inanna (Encyclopedia of Religion), Vol .7, (2005), P. 4403.

([1]) ينظر: صموئيل نوح كريمر، أساطير سومر وأكاد (أساطير العالم القديم)، ترجمة : احمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة : ١٩٧٤)، ص٨٧؛ فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية، (بغداد: ٢٠٠٠)، ص ٢٠٤؛ نائل حنون، عقائد الحياة والخصب، ص ص١٢٧-١٢٨؛ بشير يوسف فرنسيس، طين سومر الخالد "نظرة في أقدم أدب عرفه الإنسان"، مجلة سومر،ج١، المجلد: ٣، (١٩٤٧)، ص ص٢٠٤-٢٠٥.

([2]) تقدم الباحثة « الجوراني » تفسيراً لعزوف الإلهين (إنليل) و(ننا/سين) عن تقديم المساعدة للإلهة (إنانا/عشتار)، وذلك لعدم قدرتهما على فعل شيء لإنقاذها، ذلك أن (إنليل) بوصفه إلهاً للهواء، و(ننا/سين) إلهاً للضياء، وان كل من الهواء والضياء لا يخترقان الأرض إلى العالم الأسفل، ينظر: وداد جاسم الجوراني، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، ط١، (بغداد:١٩٨٨)، ص١٣٥؛ في حين يرى « بشير فرنسيس » إن مساعدة الإله (انكي/ايا) للإلهة (انانا/عشتار) جاءت لكونه الإله الحكيم العارف بماء الحياة وخبز الحياة القادران على إعادة (انانا/ عشتار) إلى الحياة من جديد، ينظر: طين سومر الخالد (مجلة سومر)، ص٢٠٥.

([3]) هناك نسختان عن هذه الأسطورة: الأولى، وهي الأقدم يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أما الثانية، فيعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ينظر: طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ط١، دار الوراق للنشر، (لندن: ٢٠١٠)، ص ص٢٨٦-٢٨٧.

بقي جالساً في مكانه وغير مكترث، على الرغم من أن الإله (إيا) "غمزه بعينه" مرات عديدة ليشعره بوجوب الوقوف، (لكنه تصنع عدم فهم الإشارة)[١]، وهذا ما نقرأه في نص الأسطورة:

"(نطق إيا وقال لنركال:)... حينما وصل (إلى الصالة التي كان الآلهة فيها)، (بعد أن أطاف) الطريق (الأتي من الجحيم)، جميع (الآلهة ركعوا) أمامه معا، (هم الآلهة العظام) أسياد المصائر، (لانه هو) يتولى سلطات، إنه يتولى سلطات (الآلهة) الذين يسكنون في حضن ايركلا[٢]، لماذا لم (تركع) أمامه؟ إني لم اكف آنذاك عن غمزك بعيني، ولكنك كنت تتصرف كمن لا يدري، وكانت عينيك (كل حين) تنظر إلى الأرض"[٣].

وبهذا يتضح أن الخطيئة التي اقترفها (نركال) تُعدّ خطيئةً متعمدة تستوجب العِقاب؛ فنفُي إلى العالم الأسفل، بيد إن المساعدة التي تلقاها من الإله (إيا) جعلته شريكاً لـ (إيرشكيجال) في حكم ذلك العالم[٤].

([1]) بوتيرو، بلاد الرافدين، ص٣٠١؛ فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ص ص١٣٥-١٣٦.

([2]) ايركلا: أسم من أسماء العالم الأسفل، ينظر: رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين (مختارات من النصوص البابلية)، ترجمة: الأب البيرا أبونا، ووليد الجادر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـــ جامعة بغداد، (بغداد: ١٩٨٨)، هامش ص١٠٩.

([3]) المصدر نفسه، ص ص١٠٩-١١٠.

([4]) تحاول الأسطورة الأكدية أن تفسر وجود حاكمين في العالم الأسفل، كما أن الباعث في ذلك ما افترضه « ساكز » بأن أسطورة (نركال وإيرشكيجال) تُعبر عن تغيير في مكانة المرأة في مجتمع بلاد الرافدين القديم، إذ إن انفراد إلهة أنثى بحكم العالم الأسفل وفقاً للتصور السومري لم يكن أمراً مقبولاً من قبل الأكديين (الجزريين) الذين كانوا يرفضون قبول زعامة المرأة في المجتمع وسيادتها، فوضعوا هذه الأسطورة التي تجعل للإلهة (إيرشكيجال) شريكاً ذكراً في العالم الأسفل، وهو زوجها الإله (نركال)، ينظر: سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب البكر، مراجعة: محمد القصاص، دار الرقي، (بيروت: ١٩٨٦)، ص٨٦؛ فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ص٩١؛ نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، ص ص١٩٨-١٩٩.

وحينما ننتقل من خطايا الآلهة القصدية إلى خطايا البشر نقرأ في اللوح الثاني عشر من "ملحمة جلجامش" تفاصيل حادثة سقوط أداتي (البكو) و(المكو)[١] العائدتين لـ (جلجامش) في العالم الأسفل ونزول (إنكيدو) لجلبهما، ثمّ نقرأ عن عدة توصيات يقدمها له رفيقه (جلجامش) كان ينبغي على (إنكيدو) أن يلتزم بها عند نزوله العالم الأسفل لكي يستطيع العودة سالماً من ذلك العالم، ويحذره من خطورة خرق تلك التوصيات[٢]:

"إذا اعتزمت النزول إلى العالم الأسفل

فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتي. سأرشدك فسر وفق إرشادي:

لا تكتس بالحلة الزاهية، وإلا هب بوجهك الموتى لأنك تبدو نزيلا غريبا عنهم.

لا تمسح جسدك بالزيت الفاخر لئلا يجتمعوا حولك بسبب عطره

لا ترم عصا في العالم الأسفل، مخافة أن تصيب بعضهم فيحيطوا بك

لا تنتعل نعلاً، ولا تحدث صوتا في العالم الأسفل

وإذا وجدت الزوجة التي تحب فلا تقبلها

وإذا صادفت الزوجة التي تكره فلا تضربها

ولا تقبل الإبن الذي تحب، ولا تضرب الإبن الذي تكره

وإلا فإن صرخة العالم السفلي ستتمكن منك"[٣].

([1]) "البكو pukku" و"المكو mukku": آلتين خاصتين لا تعرف ماهيتهما، وقد ترجمهما بعض الباحثين بالطبل ومدق الطبل، ينظر: صمويل هنري هوك، ديانة بابل وأشور(موسوعة تاريخ الأديان)، ترجمة: نهاد خياطة، تحرير: فراس السواح، دار علاء الدين، (دمشق:٢٠٠٤)، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥؛ طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ص٢٧٩-٢٨٠.

([2]) سامي سعيد الأحمد، كلكامش، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٠)، ص٩١؛ نائل حنون، ملحمة جلجامش (ترجمة عن النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي)، ط١، دار الخريف للنشر والتوزيع، (دمشق: ٢٠٠٦)، ص٦٤.

([3]) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ص٢٨٠-٢٨١.

لكن (إنكيدو) لم يلتزم بنصائح صديقه بل سار على الضد منها، فلبس الحلة الفاخرة ومسح جسده بالزيت الطيب فتجمع حوله سكان العالم الأسفل وقذف بالعصا فأحاط به من أصابتهم ، وانتعل الخف بقدميه ، وأحدث صوتا ، وقبل المرأة التي أحب ، وضرب المرأة التي كره ، وقبل الإبن الذي أحب ، وضرب الإبن الذي أبغض، فغلبه صراخ العالم الأسفل، كما أن ملكة العالم الأسفل قررت أن لا يخرج (إنكيدو) منه؛ لأن من سنن ذلك العالم أن من يدخله لا يرجع منه[١]، وبهذا يكون (إنكيدو) قد انتهك بقصد المحرمات الجهنمية التي أمره (جلحامش) أن يراعيها وجاء عِقابه فوراً[٢]. وعن الخطيئة القصدية للمخلوقات الأخرى نسوق الخطيئة التي ارتكبها النسر في قصة (آيتانا Etana)، فالعقوبة التي حلت بالنسر كانت لارتكابه خطيئة مُتعمدة. فحينما أقدم النسر على أكل صغار الثُعبان، حذره ونصحه أحد فراخه الذي تصفه القصة بأنه واسع الحكمة[٣] من مغبة ما أقدم عليه وقال له[٤]:

([1]) نائل حنون، ملحمة جلجامش، ص٦٥؛ الجوراني، الرحلة إلى الفردوس والجحيم، ص١٢٧؛
; Dina Katz, Sumerian Funerary Rituals in Context, in (Performing Death Social Analyses of Funerary Traditions in the Ancient Near East and Mediterranean), edited by: Nicola Laneri, (Chicago: 2007), P. 178;
؛ عقد الباحث « شمار » مقارنة بين موت (إنكيدو) لارتكابه الخطيئة القصدية وموت "تداد nadad" و"ابيو apiw" ولدا هارون لارتكابهم الخطيئة ذاتها، فقد جاء في التوراة: "اخذ كل من ولدي هارون مبخرته ووضعا فيها بخورا وقربا أمام الرب نارا غريبة، لم يأمرهما بها، وخرجت نار من عند الرب واكلتهما فماتا أمام أعين الرب"، ينظر: المسؤولية الجزائية، ص١٦٢.

([2]) المصدر نفسه، ص١٦١؛ وتجدر الإشارة أن العراقي القديم كان يرى إنه من العدل نزول البلوى بمن يخالف التعاليم الطقسية عن وعي وقصد، ينظر: المصدر نفسه، ص١٥٤.

([3]) ابتدع اللاهوتيون مصطلح الحكمة اعتماداً على الكلمة العبرية "حُكما" (الحكمة)، وهو جامع لكل الأعمال التي تضع في أولويات أغراضها أهدافاً أخلاقية – تربوية، ينظر: فون زودن، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ص ص٢٤٠-٢٤١.

([4]) Morris Jastrow, The Religion of Babylonia And Assyria, in Handbook on The History of Religions, Vol. 2, (Boston: 1898), P. 525.

"إياك يا أبتي أن تأكلهم، فالشراك التي عندها أدي قسم شمش سوف تقلبك رأسا على عقب وتمسك بك، أن من يتعدى على الحدود التي وضعها شمش، فإن شمش سيسلمه إلى الجلاد ليعذبه"[١].

إلّا أن النسر لم يكترث لهذه النصيحة والعهد المعقود بينهما (القسم باسم الإله "شمش" أن لا يعتدي أحدهما على الآخر)[٢]، فتجرأ وقام بأكل الصغار ليتلقى عِقابه المستحق من الإله (شمش) مستعملاً الثُعبان في تنفيذ العِقاب[٣].

إن الأمثلة التي تم ذكرها توضح أن الخطيئة حينما تُرتكب عن وعي وقصد، فالنجاسة المتولدة عن الجريمة لا يكفر عنها بتقديم تضحية الكفارة أو الإستغفار، وتستوجب إنزال أقسى العقوبات بالمذنب قد تصل إلى موته[٤].

أما في مجال الخطيئة غير المقصودة، فالنتائج المترتبة عليها تختلف تماماً عن سابقتها، فإذا كانت الخطيئة المقصودة لا تغتفر وتستوجب "الموت"، فالخطيئة غير المقصودة على الضد من هذا تماماً فهي خطيئة قابلة للغفران ولا تتجاوز عقوبتها "المرض" أو "الحزن والفقر"[٥]. والشاهد على هذا

([1]) فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ص ص٢٣٠-٢٣١.

([2]) يُعدّ الحنث بالقسم في نظر العراقي القديم خطيئة بالغة الفظاعة، فهي من الخطايا الإرادية والمقصودة التي لا يُمكن غفرانها، ومن يحنث بالقسم تحل عليه اللعنة عاجلا أم أجلا، فالإله (إنليل) في نظره كان يحجز في شبكته كل شخص ينكث بالعهد بعد أداء اليمين، ينظر: شمار، المسؤولية الجزائية، ص١٥٧؛ تقي الدباغ، الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٢)، ص١٨.

([3]) صمويل هنري هوك، الأساطير في بلاد مابين النهرين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، (بغداد: ١٩٦٨)، ص٥٤؛ فون زودن، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ص٢٣٨؛ طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص١٦٣؛ تقدم القصص اليونانية قصة مشابهة لقصة (آيتانا Etana) المارة الذكر. فتتحدث القصة اليونانية عن نسر وجعل، وكيف إن النسر التهم بيوض الجعل، وكيف إن الأخير طار إلى السماء ليعرض شكواه إلى كبير الآلهة (زوس) لينتقم له من النسر، ينظر: فاضل عبد الواحد علي، من ألواح سومر إلى التوراة، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٨٩)، ص٢١٤.

([4]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص١٥٢.

([5]) المصدر نفسه، ص ص١٥٣-١٥٤.

النوع من الخطيئة تقدمه المقدمة الأسطورية لملحمة (جلجامش وإنكيدو والعالم الأسفل)، إذ جاء فيها ارتكاب بطل الملحمة خطيئة غير مقصودة. ففي إحدى الإحتفالات كان (جلجامش) ومن شاركه مجتمعين لإجراء طقوس سحرية يتممها (جلجامش) بـ (البكو) و(المكو)، وطقوس هذه الشعائر تقتضي أن لا تحدث أية ضوضاء وأن يلتزم الجميع فيها بالصمت المطلق، وبدأ (جلجامش) برسم دائرة حول البكو، ولم يفتح أحد فمه باستثناء العذراء الصغيرة التي أطلقت صرخة بغير قصد فتسببت بسقوط الآلتين في العالم الأسفل[١]، فـ (جلجامش) لم يرتكب غلطة مقصودة أثناء الإحتفال الطقسي، والغلطة المقترفة لم يرتكبها هو، بل ارتكبتها إحدى مساعداته، فلو أن (جلجامش) هو الذي ارتكب الخطيئة وعن قصد فالخطيئة هذه لن تغتفر، ولكان (جلجامش) هو الذي مات كما مات صديقه (إنكيدو) الذي خالف عن وعي وإرادة المحظورات الجهنمية[٢].

فضلاً عن الخطيئة القصدية وغير المقصودة هناك الخطيئة العامة الناتجة عن خطايا الناس الجماعية، أو الخطايا التي يقترفها الملك وتتحمل الرعية عواقبها؛ فلهذا نجد جميع النصوص المتعلقة بالحوادث التاريخية تعزو كل ما يتعرض له البشر من كوارث وغزوات وهزائم إلى غضب الآلهة، بسبب آثام اقترفها الملك أو شعبه[٣].

تُعدّ الخطايا الجماعية التي تقترفها الناس من أكثر الأسباب التي تُثير غضب الآلهة وحنقهم مما يدعوها إلى إنزال أقسى الكوارث بالبشر تصل إلى إبادته وإنهاء وجوده على الأرض[٤]. ونقرأ في أحد النصوص عن الخطايا التي تغضب الآلهة، فالآلهة تمقت:

"الناس الذين وهم يمشون في الإثم تتطاول أيديهم

([1]) صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، (بغداد: ١٩٧١)، ص٥٩؛ شمار، المسؤولية الجزائية، ص١٧٧.

([2]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص ص١٧٧-١٧٨.

([3]) مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ١٩٩٦)، ص١٢٩.

([4]) مهند عاشور شناوة القطبي، مجمع الآلهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ٢٠٠٠)، ص١٢٩.

والذين يخالفون مبادئ السلوك الثابتة وينتهكون حرمة العقود

والذين كانوا ينظرون بعين الرضا إلى أماكن الشر[١]

والذين كانوا يستبدلون معيارا صغيرا بمعيار كبير

والذين بعد أن يأكلوا ما ليس لهم لا يقولون إننا أكلنا

والذين من بعد أن يشربوا من ماء غيرهم لا يقولون إننا شربناه

والذين يقولون سنأكل ما هو محرم

والذين كانوا يقولون سنشرب ما هو محرم"[٢].

وقد جاء الطُوفان لغسل الأرض من هذه الخطايا الجماعية، وهذا ما أكده اللوح الحادي عشر من "ملحمة جلجامش"، إذ خاطب (إيا) الإله (إنليل) قائلاً:

"**حمل صاحب الخطيئة خطيئته**

وحمل المعتدي اعتداءه

ولكن كن رحيماً في العِقاب لئلا يهلك

ولا تهمله فيمعن في الشر"[٣].

وبهذا فالغرض الرئيس من الطُوفان هو القضاء على شرور الناس وخطاياهم، فدُمر الجميع دون تمييز بين الصالح والطالح[٤]، ويتبادر إلى الذهن السؤال الأتي: كيف نظر العراقيون القدماء إلى

([1]) من الصعوبة بمكان إعطاء معنى واحد ثابت " للشر" كمبدأ وعقيدة، فهناك معانٍ مختلفة وتفاسير ومفاهيم متباينة له تختلف بصورة راديكالية من وقت لوقت وحضارة لأخرى، لكن بصورة عامة يمكن تعريف الشر بأنه أي أمر يعوق السعادة وينتزع الخير من كل مجال، ينظر: سامي سعيد الأحمد، الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان، مطبعة الجامعة، (بغداد: ١٩٧٠)، ص١٥.

([2]) الطعان، الفكر السياسي، ص٥٢٤.

([3]) طه باقر، ملحمة جلجامش، ط٣، دار الحرية، (بغداد:١٩٧٥)، ص٩٩.

([4]) سهيل قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، ط١، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت:٢٠١٠)، ص٢٠٦.

الطُوفان؟ وهل وجدوا فيه عِقاباً يتناسب والخطايا المقترفة، أم أنه إجراء تعسفي وظالم؟ وإذا ما اعتمدنا الفكرة القائلة بضرورة وجود توافق بين الخطيئة والعِقاب، فالطُوفان يُعدّ عقاباً ظالماً حتى من وجهة نظر الآلهة، ففي الخطاب الموجه للإله (إنليل) أوحى الإله (إيا) بوضوح أن الطُوفان كان إجراءً ظالماً وأحمقا: "فإذا كان لدينا مأخذ على بعض الناس فهناك عدة وسائل لمُعاقبتهم، وإذا أراد (إنليل) أن يجلب الآلام للبشرية، فإن في حوزته ما يكفي من الكوارث والنكبات دونما حاجة إلى أن يلجأ إلى وسيلة تحرم الآلهة من العباد والقرابين"[1]، ومثل هذا الموقف أبدته الإلهة (ننتو)، إذ راحت تبكي وتنوح على ذريتها من البشر، وتلقي باللوم على نفسها وعلى الإله (إنليل)، لإقدامه على إحداث الكارثة الرهيبة:

"أما ننتو السيدة العظيمة قد غطت شفتيها أثار الحمى، وكان الآلهة العظام انانوكي، قابعين عطشى وجوعى وحالما رأت الإلهة ذلك بكت، (ثمّ قالت): مولدة الإلهة مامي (Mami) الحكيمة، ليت النهار صار مظلما، وليته رجع حالكا إذ كيف جوت لنفسي أن أمر معهم في مجلس الآلهة بدمار شام أما اكتفى الإله إنليل بما نفذه من أوامر شريرة"[2].

وهذا يعني أن مبدأ العدل الاجتماعي كان موضع نقد، إذ إن الآلهة وقفت ضده وأدانته بشدة[3]. أما من وجهة نظر البشر، فالعراقي القديم لم يجد في الطُوفان الذي اهلك البريء والمذنب عِقاباً عادلاً

---

(1) Leonard W. King, Legends of Babylon and Egypt in relation to Hebrew Tradition, (London: 1918), P. 132;

؛ شمار، المسؤولية الجزائية، ص ص٣٥٩-٣٦٠؛ ومثل هكذا عِقاب ظالم نجده عند "الإغريق"، فقد كان (بوسيدون) عدواً وليس صورة للمذنب، لأنه أنهك (يوليس) بالتجارب الأكثر عذاباً والأطول زمناً، ورأت الآلهة إنه ليس هناك نسبة بين الخطايا التي اقترفها (يوليس) وبين العِقاب الذي حل به، ينظر: شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٦٤.

(2) فاضل عبد الواحد علي، الطُوفان في المراجع المسمارية، مطبعة اوفيست الإخلاص، (بغداد: ١٩٧٥)، ص ص٨٨-٨٩؛ من الواضح إن الإلهين (إيا) و(ننتو) قد عارضوا بشدة إرسال الطُوفان لإفناء الناس ولكنهم رضخوا في النهاية مكرهين أمام إصرار وعناد الإله (إنليل)، ينظر: المصدر نفسه، ص٨٩.

(3) شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٦٠.

بقدر ما كان إجراءً عنيفاً وظالماً من قبل الآلهة التي تفتقر إلى عاطفة اللطف التي يتمتع بها الإله (إيا)[١].

وفيما يخص خطيئة الملك والعقوبة الجماعية الناتجة عنها، فبقدر ما كان الملك يمثل السلطة الإلهية على الأرض، فإنه يدرك المسؤولية التي تقع على عاتقه إدراكاً جيداً، وكانت تتمثل في الحرص كل الحرص على كسب رضا الآلهة على حكمه، كونها الدعامة الرئيسة لاستمراره في ممارسة السلطة، وبالمقابل فإن عدم توافر مثل هذا الرضا يعني سخط الآلهة على هذا الحكم، ولم يكن يعني سخط الآلهة إلّا ارتكاب الملك للخطيئة[٢]، فيكون الشعب ضحية لهذه الخطيئة، وعادةً ما تسلط الآلهة جحافل الأعداء على البلاد لقتل أهلها ونهب ثرواتها[٣]، والشواهد على ذلك عديدة وأبرزها ما نجده في (لعنة أكد)، التي تُنسب نظرياً سقوط مدينة (أكد) إلى غضب الإله (إنليل) على الملك نرام سين (٢٢٩١-٢٢٥٥ ق. م) نتيجة خطئه الفاحش حينما قام بنهب مدينة (نُفّر)، واقترف بحق حرم الإله (إنليل) كل الأفعال المنتهكة لحرمة المقدسات والمدنسة لها، لذلك أدار (إنليل) وجهه نحو (الجوتيين) وأنزلهم من مواطنهم الجبلية لتدمير (أكد) والثأر لمعبده المحبوب، فضلاً عن ذلك فإن ثمانية من أهم آلهة مجمع الآلهة السومري ألقت بلعناتها على (أكد)، وقدرت لها أن تبقى مقفرة مهجورة إلى الأبد[٤].

([1]) المصدر نفسه، ص٣٦٠؛ إن واقعة كون المسؤولية الجماعية لمدينة أو بلد تقع على أبرياء في العهود القديمة، إذ يعاقبون بوصفهم مذنبين، لأن العقليات القديمة لم تعرف أية مسؤولية أخرى عدا المسؤولية المادية، ووفقاً للعقليات القديمة فالإنتقام العائلي والمسؤولية الجماعية كانا يطرحان مسؤولية ذات طابع خاص، ففي الثأر (يعتبر جميع الناس الذين هم أعضاء في مجموعة عائلية شركاء في الجريمة التي اقترفها احد أفراد العائلة)، ينظر: المصدر نفسه، ص٣٦٤.

([2]) الطعان، الفكر السياسي، ص٥٢٣.

([3]) مريم عمران، الفكر الديني عند السومريين، ص١٣١.

([4]) صموئيل نوح كريمر، السومريون (تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم)، ترجمة: فيصل الوائلي، (دار غريب: د.ت)، ص ص٨٢-٨٣.

ورب سائل هنا يسأل: إذا كان الملك هو من اقترف الخطيئة، فلماذا لم تكتف الآلهة بمُعاقبته دون البشر؟ ومن الراجح أن الملك في نظر العراقيين القدماء يشكل صلة حية بين الكون البشري والسماوي، ولكونه مجسداً لشعبه، فالذنب الذي يقترفه الملك يُحاسب عليه الجميع(١).

ومن الخطايا الأخرى التي أدركها العراقي القديم، الخطيئة الموروثة التي يرثها الأبناء من وزر خطايا الآباء (أي الخطيئة المتأتية من والدين مدنسين)(٢)، فتتحمل عائلة الميت ما اقترفه الميت من ذنوب في حياته، وهذا ما نستشفه من قراءة إحدى التعاويذ التي تذكر:

"عقوبة أبي وجدي، عقوبة أمي وجدي وكل عائلتي،

من إخوة وأخوات، عسى أن لا تأتي علي ولتذهب إلى مكان أخر"(٣)

فالميت كما يتضح من النص لا يتحمل وزر خطاياه إلى العالم الأسفل، وإنما تبقى ليتحملها ورثته وأفراد عائلته الأحياء(٤). وهكذا نُلحظ أن الآلهة كانت تُدير العدل بشكل عشوائي وجائر، فهي تُعاقب

---

(1) وفي حالات أخرى تنزل الضربة بالملك وحده عقاباً له على ذنب جماعي، بعدّه ممثلاً لشعبه، وبالتالي فهو مسؤول عن سلوك هذا الأخير امام الآلهة ، وفي هذه الحالة يعفى الشعب من العِقاب لآن الملك هو الذي سيكفر عن الذنب الذي كان من الممكن أن يسقط على رأس جميع رعاياه، ينظر: شمار، المسؤولية الجزائية، ص٧٢؛ الطعان، الفكر السياسي، ص٥٢٨.

(2) الطعان، الفكر السياسي، ص٥٢٧.

(3) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، ص١٤٥.

(4) إذا كان العراقي القديم قد تحمل خطيئة والديه الموروثة، فنظيره ألحثي لم يتحمل هذه الفكرة؛ فهذا الملك مورسيليس الأول (١٣٥٠-١٣٢٠ ق. م) يَحتج لما لحق به وشعبه من عِقاب نتيجة ذنوب اقترفها من سبقه في الحكم، فيذكر:

"لن أضيف كلمة واحدة على هذه اللوحة ولن أمحو كلمة واحدة منها، أنا لا اعرف

الملوك الذين كانوا قبلي، يا ألهتي، وإذا كان والدي أضاف أو ألغى كلمة منها فانه لا

علم لي بذلك"، ينظر:

شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٦١؛ فضلاً عن الخطيئة الموروثة، كان على العراقي القديم أن يتحمل مجموعة من الخطايا يحتمل أنها ارتكبت سهواً دون علم منه إلّا أنها تغضب الآلهة، لذلك كان يوجه الكاهن السؤال للتائب: "هل رافق احد المسحورين أو نام في سريره، أو جلس على مقعده، أو أكل من صحنه، أو شرب من قدحه، كما كان يسأله عما فعل أثناء مشيه في الشارع، وهل تخطى فوق الماء المسكوب، أو رأى ماءً قذراً، أو نظر مرتاباً إلى الماء المستعمل

الجماعة على خطيئة فرد من أفرادها، وتلقي بجرم الآباء على كاهل الأبناء، وخطيئة الأسلاف على الأخلاف[١].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هناك خطيئة تُرتكب بحُسن نية، وفي هذه الحالة لا يتعرض مرتكبها إلى أية عقوبة، وهناك شاهدان يبينان أن الخطيئة المُقترفة بنية حسنة تعفى من العِقاب[٢]. الشاهد الأول نجده في أسطورة (إنانا وإنكي) التي تروي إقدام الإلهة (إنانا) على سرقة النواميس الإلهية (Me) التي كانت بحوزة الإله (إنكي) في مدينة (اريدو) ونَقلها إلى (الوركاء)، بغية الاستزادة من أسباب النعمة والرخاء في مدينتها (الوركاء) لتجعلها مركزاً للحضارة السومرية[٣]. وتذكر الأسطورة أنه بعد وصول (إنانا) إلى (أريدو) جلس (إنكي) و(إنانا) إلى مائدة وبدءا بتناول الشراب، وصارت (إنانا) تكثر من

لغسل الأيدي، أو لامس امرأة بيدين غير نظيفتين، أو نظر مرتاباً إلى امرأة ويداه مغسولتين، أو لامس أحد غير نظيف"، ينظر:
Henri Frankfort, King Ship and the Gods "a study of Ancient Near Eastern Religion as the Integration of Society and Nature", The University of Chicago press, (Chicago:1978), P. 279;
؛ جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، دار الرشيد، (بغداد: ١٩٧٩)، ص٤٤٨؛ ، الطعان، الفكر السياسي، ص ص٥٢٦-٥٢٧؛ مريم عمران، الفكر الديني عند السومريين، ص١٢٨.

(1) شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٦٥.

(2) المصدر نفسه ، ص٣٣٩.

(3) تتفق الأسطورة ضمناً إن مدينة اريدو (أبو شهرين) قد سبقت غيرها من المُدن السومرية الأخرى في تحقيق مظاهر التمدن، وهي حقيقة تتفق مع المكتشفات الأثرية التي أثبتت أن مدينة (اريدو) كانت أولى المستوطنات في سومر، ثمّ تلتها (الوركاء) في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد في احتلال مراكز الصدارة، ينظر: فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ص١٠٠؛ علي محمد مهدي، الملاحم والأساطير في العراق القديم، مجلة أفاق عربية، العدد: ١٢، (بغداد: ١٩٨٦)، ص١٠٩؛ وفي رأي لـ « ساكز » ينقله "عبد الهادي ألفؤادي" يقول: إن الأسطورة تعكس لنا التغير المزعوم في موطن الحضارة الرئيسي في جنوب بلاد الرافدين من (اريدو) ـــ وهي أقدم مدينة سومرية وكانت قد حكمت بموجب ما تذكره جداول الملوك السومرية بمدة طويلة قبل الطوفان ـــ إلى مدينة (الوركاء) التي حكمت حسبما يذكر في المصدر السابق في المدة التي تلت الطوفان، ينظر: رحلة اينانا إلى اريدو، مجلة سومر، ج١+٢، المجلد: ٢٧، (بغداد: ١٩٧١)، ص٥٥.

تقديم الخمرة لمضيفها (إنكي) حتى بدأت الخمرة تلعب برأسه وصار يبالغ في التودد إلى (إنانا)، ولما طلبت منه أن يهديها النواميس الإلهية قال لها[١]:

"باسم كل سلطان، باسم سلطاني أنا

لأقدمن النواميس الإلهية لابنتي إنانا المقدسة"[٢].

من المؤكد أن الطريقة التي انتهجتها (إنانا) في الحصول على النواميس المقدسة ليست بمنأى عن اللوم والتأنيب، إذ استعملت سِحرها واستفادت من سكر (إنكي)، ولكن إذا كانت الوسيلة التي استعملتها (إنانا) مشبوهة فقد كان على (إنكي) أن لا يترك نفسه لحظة تيه يعطي النواميس الإلهية إلى ابنته (إنانا) ويصبح ملزماً بالكلام الذي قطعه على نفسه[٣]، كما أن غاية (إنانا) من سرقة النواميس الإلهية هي توفير المزيد من النعمة والرخاء في مدينتها لتجعلها مركزاً للحضارة السومرية ثمّ تطلق عليها اسمها وشهرتها، وبهذا فهي غاية شريفة[٤] والأسباب هذه كانت كافية لإثبات حُسن نية (إنانا) فأُعفيت من العِقاب من جهة، وأصبح بمقدورها الاحتفاظ بالنواميس الإلهية من جهة أخرى.

أما الشاهد الثاني الذي يؤكد ضرورة أخذ الدافع بعين الاعتبار والاسترشاد بالسلوك قبل إنزال القِصاص بالفاعل فتقدمه (قصة آدابا)، التي تروي قيام حكيم أريدو (آدابا) بكسر جنحي الريح الجنوبية التي أغرقت قاربه حينما كان يصطاد السمك ليزوّد به معابد مدينته، فلم تهب ريح الجنوب طيلة سبعة أيام، حينها استدعي (آدابا) من قبل إله السماء (آنو) وسأله عن سبب كسره لجنحي ريح الجنوب؟ فأجابه (آدابا)[٥]:

([1]) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص١١٤؛ قاسم الشواف، ديوان الأساطير(الحضارة والسلطة)، قدم له واشرف عليه: ادونيس، ط١، دار الساقي، (بيروت: ٢٠٠١)، ج٣، ص١٩٥؛
; G. Pettinato, Inanna (Encyclopedia of Religion), Vol. 7, P. 4403.

([2]) فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ص١٠٠.

([3]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٤١.

([4]) كريمر، الأساطير السومرية، ص١٠٨.

([5]) هوك، الأساطير في بلاد مابين النهرين، ص ص٥٠-٥١؛ شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٤٣؛
; M. Jastrow, The Religion of Babylonia, P. 546.

"لقد كنت اصطاد السمك

لبيت مولاي في البحر الخضم.

كان البحر (صافياً) مثل مرآة (؟)

(لكن) ريح الجنوب جاءت عاصفة، وغمرتني"[1].

من الواضح أن (آدابا) اقترف فعلاً يستحق عليه أقصى درجة من درجات العِقاب، كونه حطم جنحي ريح الجنوب، لكنه برر فعلته تلك فعفا عنه الإله (آنو). وجلي أن مفهوم الإنتقام يلعب دوراً في هذه الحادثة، فقد قلبت ريح الجنوب قارب (آدابا) وكان له الحق أن ينتقم لنفسه بأن يحرم ريح الجنوب من أجنحتها التي استخدمتها لتلحق به الأذى[2]؛ وهكذا فقد فُحص سلوك (آدابا) الأخلاقي وأخذت نيته بعين الاعتبار إلى حد بعيد ليُعفى من عقوبة الإله (آنو).

ولم يقتصر عِقاب الآلهة على اقتراف تلك الخطايا وحسب، بل هناك عدد من المعاصي على الإنسان أن يبتعد عنها. وقد وردت بعض من هذه المعاصي في فهرست يُعددها ويحث الإنسان على أن يقطع على نفسه عهداً مع الإله بعدم ارتكابها، ويقضي بلوم مرتكبيها في المجتمع تبعاً لوصية الإله. وعلى سبيل المثال فإن قطع مثل هذا العهد لا يقتصر على تحريم الفتنة بين أعضاء الأسرة الواحدة فحسب بل تعداه إلى تحريم عدم الإخلاص للأصدقاء ونكران الجميل، ومنع الكذب والافتراء بشتى أنواعه، والحث على قول الحقيقة غير منقوصة، وتحريم استخدام القوة ضد أسرى الحرب، ... الخ من

([1]) الكسندر هايدل، سفر التكوين البابلي قصة الخليقة "حينما في الأعالي"، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، منشورات الجمل، (بغداد: ٢٠٠٧)، ص٢٠٩.

([2]) شمار، المسؤولية الجزائية، ص٣٤٤.

النواهي الأخرى[١]، لذا فالالتزام بالتعاليم الدينية والابتعاد عن المحرمات (أي الخطايا) كان من واجب كل إنسان إذا ما أراد أن يتجنب غضب الآلهة وعِقابها[٢].

واستناداً إلى الخطايا العديدة التي ذكرناها نُلحظ أن غالبية ما يصيب العراقي القديم كان يفسر بتدخل إلهي أو بالأحرى (غضب إلهي)، فما بواعثُ ذلك؟

يُمكن القول إن صفة الغضب من بين الصفات المهمة التي أضفتها العقلية العراقية القديمة لآلهتها؛ وذلك للتماس المباشر بين هذه الصفة والإنسان، وغضب الآلهة هو محاولة ابتدعها الذهن الإنساني ليُفسر ما يصيبه من كوارث طبيعية وبشرية جماعية أو فردية[٣]، فالبيئة الطبيعية لبلاد الرافدين اتصفت بالعُنف والشدة تبعا لتبدل المواسم والتفاوت الشديد في درجات الحرارة صيفاً وشتاءً ونهاراً وليلاً، فضلاً عن الزوابع الرعدية والرياح الرملية والفيضانات السنوية لنهري دجلة والفرات، وما عُرف به هذا الفيضان من عُنف وعدم ملائمة لمواسم الدورة الزراعية[٤]، ويضاف إلى ذلك العامل البشري المتمثل بالهجرات الكثيرة والغزوات العنيفة التي تعرضت لها البلاد على مرِّ أدوارها التاريخية[٥]. والكوارث الطبيعية والبشرية هذه تُحمل حياة الفرد في بلاد الرافدين شحنات من القلق والخوف والذعر وتوقع المفاجآت لتنعكس تلك التطلعات القلقة بشكل واضح في العديد من النصوص المسمارية القديمة، التي يتكرر في مضمونها العقوبات واللعنات التي تعرضت لها البشرية، والأنكى من ذلك كلّه أن الآلهة نفسها قد تتعرض لهذه العقوبات واللعنات من قبل آلهة أخرى وللأسباب نفسها.

([1]) انطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ترجمة: توفيق سليمان وآخرون، ب. مط، (دمشق: ١٩٦٧)، ص١٩٧.

([2]) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٧٨)، ص١٤٣؛ عبد الوهاب حميد رشيد، حضارة وادي الرافدين "ميزوبوتاميا"، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق: ٢٠٠٤)، ص٢٠٤.

([3]) ولاء مهدي، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين، ص٢١.

([4]) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ص ص٤٧-٤٨؛ الأحمد، الشر والشيطان، ص١٨.

([5]) المصدر نفسه، ج١، ص٤٨.

الاستنتاجات

١. اعتقد العراقيون القدماء بعدد من الخطايا تبرر للآلهة العقوبات التي توجهها سواءً لأقرانها الآلهة أم للبشر، وهذا الاعتقاد متأتٍ من جملة أسباب منها بيئية ومنها بشرية جعلتهم يروّن في كل ما يصيبهم في حياتهم الدنيا عقاباً إلهياً ناتجاً عن اقتراف خطيئة معينة.

٢. الخطايا التي اعتقد بها العراقيون القدامى كانت متنوعة، ومن ثمّ فالعقوبات الناتجة عنها تكون متنوعة أيضاً وموازية لحجم الخطيئة المقترفة.

٣. تُعدّ الخطيئة القصدية من أكثر الخطايا التي تُثير غضب الآلهة وسخطها، وغالباً ما يكون الموت عقاباً ناتجاً عنها، أما الخطيئة غير المقصودة فتختلف تماماً عن سابقتها، إذ لا تتجاوز عقوبتها المرض أو الحزن والفقر. وأما الخطيئة العامة، فالعقاب الناتج عنها يكون عاماً شاملاً مستهدفاً جميع البشر أو مدينة بالكامل. وهناك الخطيئة الموروثة التي يرثها الأبناء من وزر خطايا الآباء، وأما الخطيئة التي تُقترف بحُسن نية فلا تترتب عليها أية عقوبة تذكر.

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

المصادر والمراجع

١. الأحمد، سامي سعيد الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان، مطبعة الجامعة، (بغداد: ١٩٧٠).

٢. كلكامش، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٠).ادزارد، وآخرون

٣. قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) والحضارة السورية (الاوغارتية والفينيقية)، ترجمة: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي، (بيروت: د.ت).باقر، طه

٤. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط١، دار الوراق للنشر ، (لندن: ٢٠٠٩).

٥. مقدمة في أدب العراق القديم، ط١، دار الوراق للنشر، (لندن: ٢٠١٠).

٦. ملحمة جلجامش، ط٣، دار الحرية، (بغداد:١٩٧٥).بوتيرو، جان

٧. بلاد الرافدين (الكتابة، العقل، الآلهة)، ترجمة: الأب ألبير أبونا، مراجعة: وليد الجاد، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٠).

٨. بابل والكتاب المقدس (محاورات مع أيلين مونساكريه)، ترجمة: روز مخلوف، ط١، دار كنعان، (بيروت: د.ت).جاكوبسن، ثوركيلد، واخرون

٩. ما قبل الفلسفة "الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى"، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت: ١٩٨٠).الجوراني، وداد جاسم

١٠. الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، ط١، (بغداد:١٩٨٨).حسين، ولاء مهدي محمد

١١. الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين وأثره في العهد القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ١٩٩٩).حنون، نائل

١٢. عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد:١٩٨٦).

١٣. عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، ط١، الشروق للخدمات المطبعية، (الأردن: ٢٠٠٢).

١٤. ملحمة جلجامش (ترجمة عن النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي)، ط١، دار الخريف للنشر والتوزيع، (دمشق: ٢٠٠٦).الدباغ، تقي

١٥. الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٢).رشيد، عبد الوهاب حميد

١٦. حضارة وادي الرافدين "ميزوبوتاميا"، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق: ٢٠٠٤).رو، جورج

١٧. العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٧٨).زودن، ف. فون

١٨. مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، (بيروت: ٢٠٠٣).سعفان، كامل

١٩. معتقدات أسيوية (العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان)، ط١، دار الندى، (بيروت: ١٩٩٩).سليمان، عامر

٢٠. المعجم المسماري (معجم اللغة الأكدية "البابلية والأشورية" باللغة العربية والحرف العربي)، منشورات المجمع العلمي، (بغداد: ١٩٩٩).شمار، جورج بوييه

٢١. المسؤولية الجزائية في الآداب الأشورية والبابلية، ترجمة: سليم الصويص، شركة المطابع النموذجية، (بغداد: ١٩٨١).الشواف، قاسم

٢٢. ديوان الأساطير، قدم له واشرف عليه: ادونيس، ط١، دار الساقي، (بيروت: ٢٠٠١).الطعان، عبد الرضا

٢٣. الفكر السياسي في العراق القديم، دار الخلود للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٨١).علي، فاضل عبد الواحد

٢٤. سومر أسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية، (بغداد: ٢٠٠٠).

٢٥. من ألواح سومر إلى التوراة، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٨٩).
٢٦. الطُوفان في المراجع المسمارية، مطبعة اوفيست الاخلاص، (بغداد: ١٩٧٥).
٢٧. عشتار ومأساة تموز، دار الحرية، (بغداد: ١٩٧٣).فرنسيس، بشير يوسف
٢٨. طين سومر الخالد "نظرة في أقدم أدب عرفه الإنسان"، مجلة سومر، ج١، المجلد: ٣، (١٩٤٧).الفؤادي، عبد الهادي
٢٩. رحلة إينانا إلى اريدو، مجلة سومر، ج١+٢، المجلد: ٢٧، (بغداد: ١٩٧١).قاشا، سهيل
٣٠. تاريخ الفكر في العراق القديم، ط١، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت:٢٠١٠).القطبي، مهند عاشور شناوة
٣١. مجمع الآلهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ٢٠٠٠).كريمر، صموئيل نوح
٣٢. الأساطير السومرية، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، (بغداد: ١٩٧١).
٣٣. السومريون (تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم)، ترجمة: فيصل الوائلي، (دار غريب:د.ت).
٣٤. أساطير سومر وأكاد (أساطير العالم القديم)، ترجمة : احمد عبد الحميد يوسف، مراجع عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة : ١٩٧٤).
٣٥. الديانة السومرية "اللاهوت والطقس والأسطورة" (موسوعة تاريخ الأديان)، ترجمة: نهاد خياطة، تحرير: فراس السواح، دار علاء الدين، (دمشق:٢٠٠٤).كونتينو، جورج
٣٦. الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، دار الرشيد، (بغداد: ١٩٧٩).لابات، رينيه
٣٧. المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين (مختارات من النصوص البابلية)، ترجمة: الأب البيرا أبونا ووليد الجادر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (جامعة بغداد)، (بغداد: ١٩٨٨).مورتكات، انطوان
٣٨. تاريخ الشرق الأدنى القديم، ترجمة: توفيق سليمان وآخرون، ب. مط، (دمشق: ١٩٦٧).موسى، مريم عمران
٣٩. الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب: ١٩٩٦).موسكاتي، سبتينو
٤٠. الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب البكر، مراجعة: محمد القصاص، دار الرقي، (بيروت: ١٩٨٦). مهدي، علي محمد
٤١. الملاحم والأساطير في العراق القديم، مجلة أفاق عربية، العدد: ١٢، (بغداد: ١٩٨٦).هايدل، الكسندر
٤٢. سفر التكوين البابلي قصة الخليقة "حينما في الأعالي"، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، منشورات الجمل، (بغداد: ٢٠٠٧).هوك، صمويل هنري
٤٣. الأساطير في بلاد مابين النهرين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، (بغداد: ١٩٦٨).
٤٤. ديانة بابل وأشور (موسوعة تاريخ الأديان)، ترجمة: نهاد خياطة، تحرير: فراس السواح،دار علاء الدين، (دمشق:٢٠٠٤).

Frankfort, Henri

45. King Ship and the Gods "a study of Ancient Near Eastern Religion as the Integration of Society and Nature", The University of Chicago press, (Chicago:1978).

Jastrow, Morris

46. The Religion of Babylonia And Assyria, in Handbook on The History of Religions, Vol.2, (Boston: 1898).

Katz, Dina

47. Sumerian Funerary Rituals in Context, in (Performing Death Social Analyses of Funerary Traditions in the Ancient Near East and Mediterranean), edited by: Nicola Laneri, (Chicago: 2007).

King, Leonard W

48. Legends of Babylon and Egypt in relation to Hebrew Tradition, (London: 1918).

Oppenheim, A. L. and Others,

49. the Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago, CAD, (Chicago :1956 ff).

Pettinato, Giovanni

50. Inanna (Encyclopedia of Religion), Vol .7, (2005).

Von Soden, Wolfram

51. Akkadisches Handwörterbuch, AHW, (Wiesbaden).